

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

الأستاذ: يحيى البقاعي

جامعة دمشق- سوريا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين. وبعد:

فإنَّ التفسير الموضوعي كمنهج من مناهج التفسير قد تبلورت قواعده وتكاملت في وقت متأخر نسبياً وقد عَرَّفُوا التفسير الموضوعي¹ بـ: " أنه علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر".

وعُرف² أيضاً بأنه: " عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد مشترك في الهدف، وترتيبها على حسب النزول إن أمكن، ثم تناولها بالشرح والتفصيل، وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما وردت في القرآن الكريم".

فهذان التعريفان للتفسير الموضوعي يُظهران طبيعة هذا اللون الجديد لتفسير القرآن الكريم.

ولسنا بصدد مناقشة التعريفين، وبيان مدى شمول قيودهما على حدود التفسير الموضوعي، ولكن يمكن إدراك الهيكلية العامة، والخطوط الأساسية للتفسير الموضوعي من خلالهما.

وقد أصبح هذا النوع من التفاسير علماً مستقلاً يدور في منهجه حول محاور ثلاثة تعبر عن طريقته في تناول النصوص القرآنية وهي³:

المحور الأول: دراسة سورة قرآنية كوحدة موضوعية، وبيان المحور الأساسي الذي تناقشه السورة وربط المعاني الجزئية بالموضوع العام الذي تتناوله السورة.

ودراسة سورة الحجرات التي نحن بصددھا مثال على هذا النوع من التفاسير من خلال هذا المحور.

الأستاذ: يحيى البقاعي

المحور الثاني: دراسة المواضيع القرآنية بطريقة جمع الآيات التي تبحث في موضوع بعينه بغض النظر عن ترتيبها المصحفي، ويفضل مراعاة الترتيب الزمني للنزول إن أمكن، ثم يدرس الموضوع على هذه المنهجية ومن الأمثلة " نظام الحكم في الإسلام " أو " الجهاد في الإسلام " وغيرها من المواضيع القرآنية وهي كثيرة ومتنوعة .

المحور الثالث: دراسة المصطلح القرآني، ويتناول هذا المحور تتبع المفردات القرآنية بكل اشتقاقاتها، فيتناول الباحث لفظاً أو مفردة قرآنية ويستخرج كل الاستخدامات القرآنية لها ويبحث عن المعنى الجامع لهذه الاشتقاقات، وعن الرابط بين هذه المعاني المختلفة التي استخدمها القرآن لهذه المفردة. ومن الأمثلة على هذا لفظ " أمة " .

وقد اخترت سورة الحجرات كمثال للتفسير الموضوعي، لما لهذه السورة من خواص. فهي تتحدث عن الأخلاق التي يجب أن يتخلق بها المسلمون في المجتمع المسلم، وهذه الأخلاق أشد ما نحتاج إليها في مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة. وفهمنا للنصوص القرآنية بطرق جديدة تبعث على الحيوية . وهذا ليس بديلاً عن التفسير التحليلي الذي هو منهج المفسرين ولكنه رديف له يساعد على فهم القرآن الكريم . سيكون له دور كبير في الإقبال على دراسة النصوص القرآنية والاستفادة من مضامينها المعجزة التي لا تفنى على مر العصور.

وبعد فإنَّ التفسير الموضوعي يمكن تفعيله في الكشف عن مناهج متكاملة يمكن استخراجها من القرآن الكريم في كثير من العلوم الإنسانية، والاجتماعية، والأخلاقية، وحتى العلمية. هذه المناهج التي تحمل الصبغة الإسلامية، والتي تتوافق مع مبادئنا وأخلاقنا بدل الاعتماد على الغرب في تلك العلوم وخصوصاً عندما تكون هناك خصوصية للمجتمع المسلم نحتاج معه إلى مراعاة تلك الخصوصية. فكثيرة هي الدراسات التربوية والنفسية الغربية لا تصلح للتطبيق على مجتمعاتنا لأنها أجريت في مجتمعات لها قيمها وأخلاقها التي لا نرتضيها في مجتمعنا المسلم ولا تصلح أساساً للتطبيق في مجتمعنا الإسلامي.

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

فلهذا يجدر بنا نحن المسلمين أن ننشئ دراسات نفسية واجتماعية ذات طابع إسلامي تصلح للتطبيق في مجتمعنا دون أن يكون لها سلبيات الدراسات الأجنبية الوافدة إلينا من الغرب.

ولا أبالغ أن دراسة علمية موضوعية لسورة الحجرات كفيلة باستنباط ذلك المنهج الذي ننشده لأخلاقنا في حياتنا الإسلامية، ففيها من ألفئات التربية التي لم يصل إليها الدارسون في الميادين الاجتماعية الغربية.

فكيف لو كانت الدراسة شاملة لكل نصوص القرآن الكريم؟!

المبحث الأول : منهج السورة في ترتيب الواجبات الأخلاقية

اتفق المفسرون على أنه ليس لهذه السورة اسم توقيفي سوى "الحجرات" وذلك لورود لفظ الحجرات فيها. والصلة بين مضمون السورة واسمها يمكن أن يدركه الناظر في السورة؛ إذ إن لفظ الحجرات إشارة إلى ما يتعلق بالحياة الاجتماعية وما فيها، وما تحتاج إليه من قوانين ناظمة لها .

وأما اسمها الاجتهادي فقد أشار الزركشي إلى أنه ينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سميت به وربما استطاع الناظر في السورة أن يستخرج لها اسما جديدا من خلال مضمونها يقول⁴ الزركشي رحمه الله : (ينبغي البحث عن تعداد الأسامي هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات، فإن كان الثاني فلن يُعَدَم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي أسماء لها) .

وبالنظر إلى الرأي السابق نجد أن السورة من أولها إلى آخرها تعمد إلى الأخلاق فتصح مسارها، وتضع منهجا أخلاقياً ينبغي أن يسلكه المؤمنون في حياتهم. فهي تبدأ ببيان الأدب مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم مع شرع الله فلا يُسبق بقول ولا بفعل من قبلهم، وقد كان ذلك فاتحة وبداية منطقية للشروع في تفصيل الآداب الأخرى، والتي تعتبر فرع عن هذا الأصل فمن لم يحقق ذلك الأصل فلن يكون له نصيب في الالتزام بالآداب الأخرى التي ستذكرها السورة. ثم انتقلت السورة إلى أدب أخروها وجوب مراعاة حرمة النبي صلى الله عليه وسلم، وعظيم مكانته لكونه رسول الله، فنهاهم عن رفع أصواتهم فوق صوته بل لا ينبغي أن تكون مساوية له توفيراً لحرمة

الأستاذ: يحيى البقاعي

صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك أمر بالتأدب معه. وذلك من أعظم الأخلاق الاجتماعية التي يجب أن يتأدب بها المسلم. ثم انتقلت السورة إلى بيان المزية التي يمتاز بها أولئك الذين ألزموا أنفسهم بذلك الأدب، وعرضت السورة بالمقابل بأولئك الذين لم يلتزموا بذلك الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووصفتهم بأوصاف تليق بحالهم لإخلالهم بحرمته صلى الله عليه وسلم.

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى طائفة جديدة من الواجبات الأخلاقية التي تحافظ على وحدة المجتمع المسلم وتماسكه فنهت المسلمين عن قبول ما من شأنه إيجاد الشقاق في المجتمع المسلم، وتماسك الصف المسلم، وعدم القطع بصحة الأخبار المغرضة دون التحقق من مصداقيتها، ومصداقية أصحابها فربما ساقها من في قلبه مرض لزرع الفتنة. فأمرت السورة بالتحري كي لا تلحق تلك الأخبار في حال الأخذ بها دون تحقق ضررا بأحد من المسلمين فيندموا على فعلهم بسبب تقصيرهم في التحقق من تلك الأخبار.

ثم انتقلت السورة بعد ذلك في عرضها للأخلاق إلى طائفة أخرى من الأخلاق الحميدة وهي إصلاح ذات البين. هذا الخلق الذي يعتبر عامل أمان يحقق وحدة وتماسك المجتمع المسلم فدعت السورة إلى الجمع بين المتخاصمين على أصول العدالة والتي تحفظ لكل حقه دون بخس لأحد، بل أشارت السورة إلى الوقوف صفا واحدا في وجه من تأبى على الحق ورفض الانصياع له .

ولأجل ذلك أشارت السورة إلى طبيعة الرابط الذي يقتضي استنفار الجميع لأداء الواجب الديني في الإصلاح بين المتخاصمين وهو الإيمان بالله الذي جمعهم تحت لواء واحد، فلا بد وأن يستشعر كل فرد واجبه نحو ذلك المجتمع الإيماني الذي سيتعرض للصدع فيما لو استشرى ذلك الشقاق وانتشر في المجتمع المسلم .

ثم انتقلت السورة بعد ذلك إلى طائفة أخرى من الأخلاق التي لا يليق بالمؤمنين أن يتخلقوا بها في ذلك المجتمع الإيماني، وتلك الأخلاق التي تقلل من شأن المؤمنين فيما بين بعضهم البعض، فلا يسخر بعض من بعض، ولا تنابز بالألقاب ولا ينبغي أن يظن المسلم بأخيه سوءا، ولا يغتب المؤمنون بعضهم بعضا فكل تلك الأخلاق الذميمة لا ينبغي

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

للمسلم الحق أن يتخلق بها لأنها تتناقض مع قاعدة الإيمان بالله عز وجل، ومع مصلحة المجتمع المسلم الذي سعى جاهدا للتخلص من أخلاق الجاهلية. فهذه السورة عن تلك الأخلاق الذميمة وقبّحت من صورتها في أعين المؤمنين. ثم أشارت السورة بعد ذلك إلى المبدأ الصحيح الذي ينبغي على أفراد المجتمع المسلم التسابق فيه والتفاضل وهو "التقوى" هذا المقياس الإلهي الذي لا يمكن أن يحزره الإنسان بمجرد الدعوى، فالكريم على الله هو التقي النقي الذي لا يرفع من شأن نفسه من خلال التعالي على الآخرين . وفي ذلك تقييم أخلاقي يبعث في النفوس الرضا والطمأنينة إلى مبدأ لا يُشَقُّ له غبار في وضع الناس أفرادا وجماعات في مراتبهم التي يستأهلونها.

ثم تعرضت السورة لشخصية المؤمن الذي لا يُراوده شك في إيمانه، والذي سخر كل طاقاته لإعلاء كلمة الحق، فهو الصادق في إيمانه. لا ذلك الشخص الذي يمنُّ بإسلامه على الآخرين. فشتان ما بين هذا وذاك .

وبعد فسورة الحجرات لا تكاد تخرج عن دائرة الأخلاق، فهي بحق مدرسة أخلاقية تعطي صورة متكاملة لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع المسلم يقول5 صاحب الظلال: (هذه السورة التي لا تتجاوز ثماني عشرة آية، سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقا عالية، وأماذا بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة، ومعاني كبيرة، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب ومبادئ التشريع والتوجيه ما يتجاوز حجمها وآياتها مئات المرات) فالسورة يمكن تسميتها بـ " سورة الأخلاق " بالنظر إلى المحور العام الذي تدور حوله آيات السورة.

مكان وزمان نزول السورة وحكمة توقيت النزول .

أما مكان نزول السورة فهو المدينة، وأما زمان النزول فقد نزلت في السنة التاسعة من الهجرة6الوقت الذي كادت تكتمل فيه شرائع الإسلام. فالسورة نزلت في وقت يريد الشارع أن يتمم حلقة من أنفس الحلقات في البناء الصحيح للمجتمع الإسلامي، الذي تبلورت صورته وتكاملت، والذي يحتاج إلى القواعد الكفيلة ببقاء هذا المجتمع متماسكا محافظا على وحدته الاجتماعية، ووحدته العقدية، التي هي أساس بنائه وبقائه،

الأستاذ: يحيى البقاعي

فالسورة نزلت في وقت يريد الشارع سبحانه أن يقرر آداباً عامة لأبد منها لهيكل المجتمع المسلم بشكل متوازن، ومضبوط بأصول تربوية لا خلل فيها ولا طغيان لجانب على آخر كما هو الشأن في ضوابط وأخلاق المدنية الغربية المادية الجانحة.

حكمة توقيت النزول:

إنَّ الأسباب التي نزلت على أثرها السورة تدل على أنَّ خلا لا زال موجوداً في سلوك بعض الأفراد، فاستدعى ذلك أن يأتي التشريع بشمولية لا تترك أحداً إلا وتدخله ضمن دائرة وجوب التقيد بتلك المبادئ والأخلاق. فالارتباط بين مضمون السورة وزمن النزول واضح للمتأمل في الحكمة من توقيت نزول السورة. ذلك لأنَّ الأحكام الشرعية عندما تنزل في وقت الحاجة إلى البيان يكون أثرها أكبر في النفوس. فمجيء الوفد⁷ وفد بني تميم . وسلوكهم اللامبالي بعظمة النبوة، ولا الأعراف الاجتماعية التي تَقْبَلُهَا الْفِطْرُ السليمة من حيث كونها أعرافاً تحافظ على السلوك من الانحراف، ومن الخروج عن الحد الأدنى للأدب، كل ذلك كان مبرراً لنزول تلك التشريعات الأخلاقية في ذلك الوقت . ومن الملاحظ أنَّ تلك الأحكام التي تضمنتها سورة الحجرات تعتبر أحكاماً سلوكية تعكس الصورة المثالية التي يجب أن يكون عليها حال المجتمع المسلم فكان نزول هذه السورة بما فيها من أحكام . والتي تعتبر متممات لقانون مجتمع متكامل ولسلوك ناضج . تالياً من حيث الترتيب الزمني للأصول العقدية التي على أركانها يؤسس ذلك الصرح الأخلاقي المتين.

إنَّه المنهج الصحيح الذي هو منهج الأنبياء القائم على تثبيت أصول العقيدة أولاً، حتى إذا رسخت العقيدة في الصدور جاء دور التشريعات المتضمنة للأحكام العملية والواجبات الشرعية التي يلزم المكلفين تطبيقها، ثم بعد ذلك تكون التشريعات التي تضع للامسات الأخيرة في تشييد بناء ذلك المجتمع المؤسس تأسيساً عقدياً متيناً، والذي يُترجم على أرض الواقع بشكل عملي ملموس.

إنَّ المنهج الدعوي الذي سلكه رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما وضعنا على حكمة نزول السورة في ذلك الزمان. لقد بقي صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة يبني العقيدة في النفوس، وكان المكان حينئذ مكة المكرمة التي كانت لا تزال دار كفر في تلك

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

الفترة. فلو أنَّ السورة نزلت في ذلك المكان وذلك الزمان لما كان لها أدنى قبول إذ لم تكن العقيدة قد رسخت في النفوس بعد ، ثم جاءت المرحلة المدنية والتي كانت في بدايتها مرحلة تشريع تأسيسي للمجتمع المسلم، فالمجتمع لازال غير مهياً لتلك الأخلاق الرفيعة حتى إذا اكتملت التشريعات التي تنظم العلاقات المادية بين المسلمين يكون الوقت مناسباً للتشريعات الأخلاقية فكان نزول السورة مناسباً للزمان الذي اكتملت فيه شرائع الإسلام والمكان الذي هو محط الأنظار لأنه مكان التطبيق العملي لأحكام الشريعة في عصر التشريع الأول .

أهداف السورة الأساسية:

سورة الحجرات فيها من الدروس السلوكية ما يجعلها مدرسة متكاملة في بيان واجبات الإنسان سواء مع ربه أو مع النبي صلى الله عليه وسلم أو مع أقرانه أو مع نفسه بالذات. وإذا أردنا أن نُلَخِّصَ الأهداف التي ترمي السورة إلى تحقيقها فهي:

1. وجوب التقيد بأحكام الشريعة وعدم جواز الخروج عنها.
2. وجوب التأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال، فلا ترتفع الأصوات فوق صوته، ولا يُسبق من قبل أحد من المسلمين بقول أو بفعل لأن ذلك يعتبر مخلا بالأدب معه صلى الله عليه وسلم.
3. بيان الآداب الاجتماعية الواجب مراعاتها.
4. وجوب التحقق من الأخبار قبل العمل بها وخصوصاً أخبار من يتهم بالفسق.
5. وجوب مراعاة حرمة المؤمن وأنه ينبغي منع كل شيء يُلحق به أذى.
6. وجوب الإصلاح بين المتخاصمين من المؤمنين.
7. وجوب قتال البغاة.
8. بيان حرمة السخرية واللمز والتنازع بالألقاب.
9. النهي عن الظن والتجسس والغيبة.
10. بيان أنَّ أصل البشرية واحد، وبالتالي النهي عن التفاخر بالأباء لأنَّه أصل البشرية الذي يشترك فيه جميع الناس.
11. بيان مقياس التفاضل بين البشر ألا وهو التقوى.

الأستاذ: يحيى البقاعي

12. بيان حقيقة الإسلام والإيمان.
 13. بيان صفات المؤمنين.
 14. التحذير من المنّ لأنه محبط للعمل.
 15. التذكير بمراقبة الله عز وجل لأعمالنا، وأنه سبحانه لا تفوته فائتة، وأنه مطلع على خفايا النوايا.
- فهذه أهم الأهداف التي جاءت السورة لتحقيقها، والتي يمكن أن يستخلصها المتمعن في آيات السورة.
- المبحث الرابع : دروس السورة والتنسيق بينها.
- إنَّ لكل سورة في القرآن شخصية مستقلة ، ولها موضوع أساسي تقرره8
- وسورة الحجرات لها شخصيتها المستقلة التي تبين لنا محور السورة، والتي يدور موضوع السورة حولها، فهي تعني بتوجيه المسلمين إلى الأخلاق الربانية، فتدعوا إلى الأخلاق الاجتماعية السامية وتحذر من الأخلاق الفاسدة التي تزرع الفرقة والشقاق في المجتمع المسلم.
- والسورة مكونة من مقدمة ودروس وخاتمة.
- المقدمة : الآية الأولى، ومحورها بيان الواجب الشرعي للمكلفين نحو مصدر التشريع .
- الدَّرْس الأول: من الآية الثانية حتى الخامسة، ومضمونه الآداب التي يجب الالتزام بها مع النبي صلى الله عليه وسلم.
- الدَّرْس الثاني: من الآية السادسة حتى الثامنة، ومضمونه وجوب التحقق من أخبار الفسقة وعدم التعجل بالحكم قبل التثبت.
- الدَّرْس الثالث: من الآية التاسعة حتى العاشرة، ومضمونه وجوب إصلاح ذات البين بين المؤمنين في المجتمع المسلم.
- الدَّرْس الرابع: من الآية الحادية عشرة حتى الثانية عشرة، ومضمونه النهي عن الأخلاق المذمومة في المجتمع المسلم.
- الدَّرْس الخامس: الآية الثالثة عشرة، ومضمونه بيان مقياس التفاضل في الشريعة الإسلامية .

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

الدَّرْس السادس: من الآية الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة، ومضمونه بيان أنَّ الإسلام دين الانسجام بين القول والفعل.

الخاتمة: الآية الثامنة عشرة، ومضمونها الإخبار بأنَّ الله يعلم حقائق أفعالنا فلا يخفى عليه شيء .

وفيما يلي بيان مفصَّل للدروس وموضوعاتها والتنسيق فيما بينها .

المقدمة:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"

الحجرات: ١

المعنى العام: يطلب الله تعالى من المؤمنين أن ينقادوا لأوامر الشريعة دون أدنى اعتراض ولا مناقشة لأنَّ واجبه التنفيذ لا الاعتراض والمناقشة لما يأتي من الله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم فلا يذبحوا يوم عيد الأضحى قبل أن يذبح ولا يصوموا يوم الشك وقد نهى عنه⁹.

الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآية:

لقد جعل الحق عز وجل هذه المقدمة كشروع لبيان حكم ما يأتي بعدها فمتى انصاعوا ورَضوا بهذه القاعدة في الالتزام بأوامر الشرع، ساء الشروع في عرض الأحكام الشرعية التالية لها أما إذا ظهر منهم بوادر النفور وعدم القبول لهذه المُسلَّمة فلا مناص من أنهم لن يرضوا بما يأتي بعدها من أحكام تفصيلية، وهذه المقدمة . كما هو واضح . تجعل من قاعدة الإيمان . بالله رباً، وبمحمد نبياً، ورسولاً ومبلغاً عن الله . أرضية الاطمئنان التي تجعل جميع المؤمنين مطمئنين من أنَّ هذا الذي يأتيهم من عند الله لا يمكن أن يدخله الخطأ، وسوء التقدير، وذلك لأنَّ المُشرَّع الذي أنزله يتصف بسائر الكمالات، وأثبَّت للخلل أن يدخل في أحكامه وشرائعه.

والحق جل شأنه عندما ينهاهم عن أن يقدموا بين يدي الله ورسوله؛ إنما ينهاهم عن ذلك حفظاً لمصلحتهم. ذلك لأنَّ من مصلحتهم الرضى بما يأتي من عند الله. يقول¹⁰ الطبري رحمه الله: (يا أيها الذين أقروا بوحدانية الله، ونبوة محمد صلى الله

الأستاذ: يحيى البقاعي

عليه وسلم لا تعجلوا بقضاء أمر في حروبكم أو دينكم قبل أن يقضي الله لكم فيه ورسوله، فتقضوا بخلاف أمر الله ورسوله...

فهذه المقدمة جاءت تمهيداً للدخول إلى الدروس.

الدرس الأول: الآداب التي يجب التزامها أثناء مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم.
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

الحجرات: ٢ - ٥

المعنى العام: بعد أن نبّه الحق سبحانه وتعالى على وجوب الانقياد لأحكام الشريعة، وعدم الاعتراض انطلاقاً من قاعدة التسليم لله ورسوله بدأ معهم بالدرس الأول، والذي هو بدوره مقدمة ثانية لما يأتي بعده من أحكام تشريعية، فرسول الله المبلغ لأحكام الله لا بد وأن تُحفظ له هيئته وجلالته من قبل الآخرين فإذا انتهكت هذه الحرمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فسيكون هذا استخفافاً لا يليق بالمؤمنين. وبحق من؟ بحق المبلغ عن الله!!

إنّ شيئاً كهذا يمكن أن يزعزع الكيان الإيماني بمجمله في نفوسهم، فأمرهم الحق سبحانه وتعالى أن لا يغفلوا عن هذه الحقيقة البينة.

الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآيات:

ثم يأتي تفصيل ذلك فقد خاطبهم الحق سبحانه بالنداء الذي يدل على رضاهم بما سبقت الإشارة إليه من الإيمان بالله ورسوله، ولولا أنهم متصفون بذلك لما وصفهم بهذا الوصف. لقد أعلمهم الحق سبحانه أنّ أول الآداب التي ينبغي أن يتحلّوا بها في حضرة الرسول المبلغ عن الله خفض الصوت الذي اعتادوا رفعه فيما بين بعضهم البعض. قال 11 صاحب الكشف: (إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يَفُتُّوا ويَغْفُلُوا عن

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

تأملهم، وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم، وذلك لأنَّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به ... ثم حذرهم من أنَّ الإخلال بهذا الأدب يمكن أن يجر صاحبه إلى الهلاك من حيث لا يشعر فالحذر الحذر من الغفلة عن التمسك بهذا الأدب بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم . ثم نبههم الحق سبحانه إلى السلوك الرشيد في مثل هذا الموقف فأشار إلى أنَّ غضَّ الصوت عند النبي هو الخلق الأمثل الذي لا بد منه لمن أحب الفوز برضوان الله سبحانه .

إنَّ من تحقق بذلك فإنَّه من الذين أخلص الله قلوبهم لمحبتهم وطاعته ومتابعة نبيه، وأولئك الذين ينالهم جزيل العطاء الإلهي الذي لا تحُدُّ حدود ولا تتصوره العقول وفي ذلك جذب لهم وتشويق كي يسلكوا ما أمرهم به، فيصلوا إلى النعيم الخالد . ثم بيَّن الحق سبحانه حال أولئك الذين أساءوا الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادوه بطريقة لا تليق ومكانته من الله سبحانه وتعالى، فتصرفهم هذا لا يمكن حمله إلا على قلة عقولهم، وسفاهة أحلامهم، وعدم إدراكهم لمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أمَّا لو كان مع علمهم بمكانته لأهلكهم الله في وقتهم، ولحكم عليهم بالكفر، ولكن أعرض عنهم لجعلهم، لأنَّ من رحمة الله أن لا يأخذ أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه .

إنَّ في ذلك أرشاداً للصحابه ألا يُقَدِّمُوا على تلك التصرفات مع علمهم بمكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثم أشار الحق إلى أمر يشهد بجهل هؤلاء المسيئين الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو استعجالهم وعدم تريثهم حتى يخرج إليهم رسول الله بعد انتهاء قيلولته .

فلو أنهم صبروا حتى يخرج إليهم من عند نفسه لكانت النتيجة خيراً لهم مما كان يخطر في بالهم من تحقيق المكاسب في استعجاله .

وقد ذكر 12 المفسرون أنهم أتوا في أسرى لهم، فلو أنهم صبروا حتى خرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأطلق سراح جميع الأسرى بغير فداء . ولكنَّ فعلهم هذا جعل

الأستاذ: يحيى البقاعي

رسول الله يفادي النصف بالمال، ويطلق النصف الآخر بدون مال. ففعلهم لم يجزّ لهم نفعا كما تصوروا .

إنَّ ورود الآية على هذا النمط الذي وردت فيه يُظهر للمتأمل مكانة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه وقد أشار 13 الزمخشري إلى ذلك فقال: (فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله وإجلاله. منها: مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به صلى الله عليه وسلم، ووسمهم بالسفه والجهل بسبب ما أقدموا عليه، ومنها لفظ الحجرات التي كُتِبَ بها عن موضع خلوته، ومقيله مع بعض نسائه. ومنها المرور على لفظها مقتصرًا على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم، ومنها التعريف باللام دون الإضافة. ومنها: أن شفع ذمهم باستجفائهم واستراك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهوينا للخطب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتسلية له ...).

فكل هذه الإشارات فيما دلالة على عظيم مكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ربه.
الدرس الثاني: وجوب التحقق من أخبار الفسقة .

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

الحجرات: 6 - ٨

المعنى العام: يحث الحق سبحانه في هذه الآيات عباده على وجوب التحقق من أخبار الفسقة، وعدم التعجل في القضاء بناء عليها قبل التأكد من صحتها. تأسيساً برسول الله الذي كان يتحقق من تلك الأخبار قبل بناء الأحكام عليها. فكان بفعله هذا يتجنب الوقوع في الزلل الذي كان يدفعه إليه بعض الذين في قلوبهم مرض، وكان بحكمته يتجنب الانسياق وراء أولئك المغرضين. فعليكم بمنهجه والتزموا طريقته في التريث وعدم التعجل في القضاء على الأمور لمجرد أخبار واهية لا مستند لها في الواقع. إنكم إن

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

لم تلتزموا منهجه فستكون عاقبة فعلكم وبالاً عليكم وندامة، فما وجوده فيكم إلا كوجود المعلم الذي يريد أن يختصر لكم الطريق إلى معرفة الحق والصواب.

الشرح التفصيلي لما تضمنته الآيات:

بعد أن بين الحق سبحانه مكانة نبيه وما يجب عليهم في حقه في الدرس الأول أمرهم في الدرس التالي أن يلتزموا طريقته ومنهجه في معالجة الأمور ومنها خبر الفاسق فقال لهم: يا من آمنتم بالله ربا وبمحمد رسولا إن جاءكم فاسق بنبأ فلا تتعجلوا في الحكم قبل التعرف على حقيقة هذا الخبر. فإن ذلك المخبر ربما أراد أن يوقع بينكم العداوة، فتمهلوا في الحكم ولا تستعجلوا فإنَّ العجلة ربما جرَّتكم إلى الندامة بأن تصيبوا من كان بريئاً بسبب ذلك الخبر الكاذب. فعليكم بمنهج رسول الله الذي هو قدوتكم في كل شيء ومنه هذا الأمر، فهو الذي يبين لكم ما يرضيه الله لكم. وقد كان من منهجه التريث والتحقق فأرشدهم الحق سبحانه إلى أنَّ وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم يجب أن يمنعهم من الإتيان بمثل تلك الأخبار لأنَّ الله يُطْلِعُ نبيه على ذلك.

يقول تعالى لأصحاب نبي الله صلى الله عليه وسلم: (واعلموا يا أيها المؤمنون بالله ورسوله أنَّ فيكم رسول الله، فاتقوا الله أن تقولوا الباطل وتفتروا الكذب، فإنَّ الله يخبره أخباركم ويُعْرِفُهُ أنباءكم، ويقومه على الصواب في أموره) وفي هذا تحذير لمن تسوَّل له نفسه الإتيان بما لا أصل له في الواقع. ثم أشار الحق سبحانه إلى أنَّ عدم إطاعة رسول الله لهم إنما هو رحمة لهم، فلو أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سارع إلى ما أرادوا قبل وضوح الأمر، وأجاب لما أشاروا به عليه لوقعوا في العنت والإثم، ولكنه لا يطيعهم رحمة بهم في غالب ما يريدون قبل وضوح الصواب له صلى الله عليه وسلم، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه¹⁴.

الدرس الثالث: وجوب إصلاح ذات البين بين المؤمنين .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

المعنى العام: يأمر الله سبحانه المؤمنين بفضِّ الخلافات الناشئة بين المؤمنين بالطرق السلمية المبنية على إصلاح ذات البين، ونزع الخصومات وأسبابها المفضية إليها، ولكن إذا تمرت إحدى الطائفتين على الحق وعلى الإصلاح السلمي فيجب على المجتمع المسلم التدخل ولو بالقوة لحمل البغاة على قبول الحق والانصياع له، وعلى المؤمنين تحقيق العدل بين الفئات المتخاصمة وعدم الجور.

ثم أشار الحق سبحانه إلى أنَّ الذي يجب أن يدفعهم للقيام بهذا الواجب إنما هو رابطة الأخوة الإيمانية. وحذَّره من تضييع هذا الواجب، وبين لهم أنَّ التزام هذا الواجب ضمن الواجبات الشرعية الأخرى هو مظنة الرحمة ومغفرة الذنوب من الله سبحانه وتعالى لهم.

الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآيات:

بعد أن أمر الله المؤمنين في الدرس السابق بالتحقق من أخبار الفسقة حفاظاً على عدم إيذاء المؤمنين من غير بينة، وحفاظاً على وحدة المجتمع المسلم، أمرهم في هذا الدرس بأمر آخر يحافظ على وحدة المجتمع المسلم من الشقاق والفرقة، فالرابطة بين هذه الحلقات المتسلسلة واضحة فجميع هذه الأوامر والنواهي هدفها الحفاظ على وحدة المجتمع المسلم.

فأمرهم الحق سبحانه بالإصلاح بين المؤمنين عن طريق دعوة الجميع إلى الصلح وفض الخلافات فيما بينهم بالحوار السلمي الهادئ ، لكن ربما أمتنع بعض المتخاصمين أو كلهم وتابى على قبول الصلح فيجب قتال من أمتنع عن قبول الحق.

فالإصلاح يكون أولاً بالدعوة إلى تحكيم كتاب الله والرضا بما فيه أولاً، فإن لم يستجيبوا لذلك فيأمر الحق سبحانه المؤمنين بمقاتلة الفئة الباغية حتى تعود إلى حكم الله فإن رجعت فاءت إلى حكم الله فيأمر الله عباده بالمبادرة إلى الإصلاح بين الطائفتين

ردماً لأسباب الخلاف وتضييقاً على الشيطان بالإنصاف في الحكم بين المتخاصمين¹⁵ إنَّ حرمة المجتمع الإسلامي لا يجوز لأحد أن ينتهكها ولا أن يعرضها للخطر ولو أدى ذلك إلى إزهاق بعض الأرواح، لأنَّ حرمة الكل أعظم من حرمة البعض. فلا ينبغي للمؤمنين

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

أن يروا عوامل التفكك تنخر مجتمعهم ثم لا يحركون ساكناً فيجب محاربة ما من شأنه تعريض وحدة المجتمع للخطر.

الدرس الرابع: الأخلاق المذمومة في المجتمع المسلم والنهي عنها.

ثُمَّ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (١٢).

الحجرات: ١١ - ١٢

المعنى العام: نهى الحق سبحانه وتعالى عباده في هذه الآيات عن جملة من الأخلاق المذمومة والتي يمكن أن تسيء للعلاقة بين أفراد المجتمع المسلم. فنهى عن السخرية وهي النظر إلى الآخرين باستخفاف وتحقير، ونهى عن اللمز الذي يحمل في طياته معنى الطعن في الغير والانتقاص منه، ونهى عن التنازع بالألقاب التي يكرهها من يدعى بها لأنَّ فيها إثارة للكراهية والفرقة بين المؤمنين، وأخيراً نهى عن سوء الظن بالآخرين. ولأجل ذلك أمر باجتناب كثير من الظن حتى لا يقع الظانُّ في البعض المحرم الذي نهى عنه، وفي ذلك ما فيه من الاحتياط والتحرز من الوقوع في أعراض المسلمين.

الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآيات:

بعد أن أمر الله المؤمنين بإزالة جميع أسباب الفرقة والشقاق بين المتخاصمين، وإصلاح ذات البين في المجتمع المسلم، نهى عن جملة من الأخلاق التي يؤدي تفشيها في المجتمع المسلم إلى تفككه. فنهى عن السخرية بين المؤمنين رجالاً ونساءً لما فيها من التقادح المخل للحرمة بين الأفراد فربما كان المسخور منه خيراً عند الله من الساخر. قال 16 صاحب زاد المسير: (لا يسخر قوم من قوم أي لا يستهزئ غني بفقر ولا مستور عليه ذنبه بمن لم يُستر عليه ولا ذو حسب بلئيم الحسب، وأشباه ذلك مما ينقصه به، عسى أن يكون عند الله خيراً منه ...).

الأستاذ: يحيى البقاعي

ثم نهى الحق سبحانه المؤمنين عن اللزما فيه من إظهار النقائص سواء بالقول أو الإشارة، وذلك لأنَّ المؤمنين كنفس واحدة متى عاب مؤمن أخاه فكأنَّه عاب نفسه¹⁷. ثم نهاهم عما من شأنه أن يذهب الوقار بين المؤمنين وهو التنابز بالألقاب وحقيقته: أن يدعو الشخص غيره بلقب يعلم أنَّه لا يحبه ولا يرتضيه. فهذا ما ورد النهي عنه. أما ما كان لا يكرهه المدعو به فلا حرمة فيه ولا نهى بل يحمل في بعض المواطن على التكريم والتبجيل. والمدار في النهي على ما من شأنه الانتقاص من الغير.

ثم نهاهم عن خلق مذموم آخروهو سوء الظنِّ بالمؤمنين، وذلك لأنَّ العلاقة بين المؤمنين لا بد أن تكون مبنية على الثقة المتبادلة بين الأفراد فنهاهم الحق سبحانه أن يظنوا ببعضهم البعض ظنَّ السوء إلا ما كانت الداعية إليه قوية.

يقول¹⁸ القرطبي : (والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها أن كل ما لم تعرف له أمانة صحيحة وسبب ظاهر كان حراما واجب الاجتناب ...).

فهذا الضابط الذي يميز ما يجب اجتنابه من الظنون مما لا يجب اجتنابه بل التحقق منه. أما قطع الظنون بالكلية ففيه تفويت لمصلحة شرعية. فربما كان الظنُّ طريقا موصلا إلى اليقين فيبنى عليه إعادة الحقوق إلى أصحابها كالظن بمن يُعلم من حاله أنه معتاد على فعل محرم، وهناك قرائن تدل على ارتكابه له فالظن بهذا وأمثاله لا يعتبر من المنهي عنه.

قال¹⁹ صاحب فتح القدير نقلا عن الزجاج: (...فأما أهل السوء والفسوق فلنا أن نظنَّ بهم مثل الذي ظهر منهم ...)

ثم نهى الحق سبحانه عن التجسس الذي هو تتبع عورات الغير ومعايبه. فالمؤمنون كالجسد الواحد الذي يكمل بعضه بعضا.

فهل يتفق وجود هذا الخلق المذموم مع التكافل بين أفراد المجتمع المسلم؟!

فجاء النهي عنه حفاظا على وحدة المجتمع المسلم، إذ إنَّ هذا السلوك الشائن يزرع الخلاف والفرقة بين المسلمين لذلك عدَّه العلماء من الكبائر²⁰.

ثم نهاهم عن الغيبة وهي أن يذكر الإنسان غيره بما يكره. وقد صورها القرآن تصويراً منقراً تعافه النفوس السليمة، فمثَّل الغيبة بأكل لحم الإنسان وهو ميت. ثم أوقفنا

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

الحق سبحانه على جهة التوبيخ الذي مثل به للذي يقع في غيبة المؤمنين فقال: **أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ الْمَيِّتِ؟** فَإِنْ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ وَعَافَتْ نَفُوسُكُمْ ذَلِكَ فَدَعُوا الْغَيْبَةَ لِأَنَّ هَذِهِ كَذَلِكَ بَلْ هِيَ أَشَدُّ فِي الْحَقِيقَةِ 21 .

ففي هذا الدرس بيّن الحق سبحانه ما يجب النفور عنه من الأخلاق المذمومة التي لا تتماشى وطبيعة منهج الإنسان المؤمن، الذي أشد ما يكون مهتما بإصلاح نفسه فلا يجد مسوّغا للطعن في غيره لانشغاله بالأهم، وهو إصلاح ذاته ومجتمعه فهو في استشعار دائم بهذا الواجب. فلا يكون نقده للغير إلا على سبيل تحصيل منفعة أعظم من المفسدة المتوهمّة.

الدّرس الخامس: مقياس التفاضل في الشريعة الإسلامية .

بَٰرِئٌ مِّنَ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْنَةِ أُولَٰئِكَ يَفْعَلُونَ لِكُلِّ دِينٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٣
أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣)

الحجرات: ١٣

المعنى العام: يبين الحق سبحانه أنّ أصل الناس واحد، وكونهم قد تفرعوا من أصل واحد فلا ميزة لبعضهم على بعض في النسب، فالكل يعودون إلى ذات النسب.

وقد جعلهم الله شعوبا وقبائل ليتعارفوا فيؤدّوا المهمة التي خلقهم الله لها قال 22
الثعالبي: (يا أيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون، وإنما جعلتم قبائل لأن تتعارفوا أولأن تعرفوا الحقائق).

ثم أشار الحق سبحانه إلى أن مقياس الكرامة الإلهية هو التقوى لا أنسابهم التي يدعون. الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآيات:

بعد أن نهى الحق سبحانه المسلمين في الدّرس السابق عن جملة من الأخلاق المذمومة التي تُدخل الشقاق بين أفراد المجتمع المسلم، نهاهم عن سبب آخر من أسباب الشقاق والفرقة، وهو الافتخار بالأنساب، فدعوى البعض بأنّ لهم النسب الأعرق بين الناس ما يجعلهم يتكبرون به على غيرهم، ليس له ما يؤيده في حقيقة الأمر. فنهاهم الله عن ذلك، وأبان لهم وجه الحق في ذلك بأن ذكّرهم بأنّ أصل البشرية جمعاء واحد، فلا يفخر أحد على أحد بما الكل فيه مشتركون. فهم جميعا منتسبون لأب واحد وأم واحدة.

الأستاذ: يحيى البقاعي

ثم جعلهم شعوبا وقبائل وذكّرهم بأن حكمته سبحانه اقتضت أن يكونوا كذلك لكي يتعارفوا التعارف المفضي إلى معرفة كل ما له وما عليه، فتوصل الأرحام وتودّى الحقوق.

ثم أخبرهم سبحانه وتعالى بأن مقياس التفاضل ليس هو التفاخر بالأباء بل هو تقوى الله تعالى ممثلا بتطبيق أوامر الله في شرعه. فمن أراد السبق فليكن مضماره هو ميدان التفاضل الحقيقي الذي له الوزن والاعتبار يوم القيامة لا بالذي تظنون من التفاخر بالأباء والأنساب.

ثم أكد لهم بعد كل ذلك أنه مطلع عليهم ومراقب لهم؛ فيجازيهم على أعمالهم إن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر. فالعاقل من انتصح بنصح الله، وألزم نفسه شرع الله كي يحوز السبق عند الله.

فانظر إلى هذا التذليل كم هو ناصع الحجة، يحمل في طياته التهديد المبطن لمن لا يلزم نفسه بنصح الله.

الدّرس السادس: الإسلام دين الانسجام بين القول والفعل

بِتُ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧)

الحجرات: ١٤ - ١٧

المعنى العام: بعد أن بيّن الحق سبحانه مقياس التفاضل الحقيقي بين الناس وهو تقوى الله.

بيّن أنّ الإيمان ليس كلمات يرددها اللسان فحسب، بل هو أعظم شأنًا من ذلك، وما قول الأعراب الذين ادّعوا ذلك إلا مجرد دعوى تحتاج إلى تصديق يقيني من القلب، فأرشد الحق سبحانه إلى أنّ الإيمان: هو ما توافق عليه قول اللسان ومعتقد القلب .

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

ثمَّ بيَّن الحق سبحانه صفات المؤمنين الذين تحققوا بوصف الإيمان بترجمته على أرض الواقع فوصفهم بأنهم يُضَحُّون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وأشار الحق سبحانه إلى أنَّه مَطَّلَع على حقائق الناس فلا يخفى عليه إيمان المؤمن الصادق من دعوى المدعي. ثمَّ بيَّن أنَّ الإيمان يحجز صاحبه عن أن يرى لنفسه فضلا، بل يرى أنَّ الفضل كله لله، فلا يجد من نفسه إلا الاعتراف بعظيم المنَّة الإلهية.

الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآيات:

بعد أن ذكَّر الحق سبحانه بأحقية التقوى كمقياس للتفاضل كما سبق، بيَّن سبحانه سبيل التقوى الذي من خلاله يتفاضل الناس وهو الإيمان بالله وحده، ولكن ليس هو الإيمان الذي تدَّعيه الأعراب، فمقالتهم التي نطقوا بها تنطبق على اسم الإسلام أي: الانقياد والاستسلام الظاهري دون اليقين القلبي.

فلا يغترُّ أحد بدعواهم فيسلك سلوكهم، ويُمَيِّي نفسه بعد ذلك بالأمان كما هو حال الكثير ممن يدَّعون الإيمان دون أدنى التزام!!

ثمَّ سلك الحق سبحانه معهم مسلك المربي لهم المشفق عليهم، فأعلمهم أنَّهم دون الإيمان بأشواط، وحالهم التي هم عليها لا تؤهلهم أن يُوصفوا بوصف الإيمان ولكن يمكن تحصيل الإيمان بالمواظبة على الانصياع والانقياد لأوامر الشرع، وكأنه يقول لهم: إذا واطبتم على ما أنتم عليه من الانقياد الظاهري حقيقة فلسوف يكون هو طريقكم إلى الإيمان الحقيقي.

ثمَّ بيَّن لهم أنَّه سبحانه لن يضيع أجر من أحسن عملا تأليفا لقلوبهم، فإن هم آمنوا وواظبوا على الاجتهاد في الطاعة فسوف تحصى أعمالهم مهما دقَّت في أعينهم، ولسوف يغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم.

ثم يكشف لهم الحق سبحانه عن ثمرة الإيمان عند أصحابه، فهو يعطيهم يقينا لا يتزعزع، ولا يمكن لشيء أن يقوضه في نفوس أصحابه، فيورثهم التضحية بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

فكل شيء عندهم تتلاشى أهميته في سبيل تحقيق عقيدتهم وأداء واجهم الشرعي، فلا المغانم تغريهم وتفتنهم ولا الضيق والحاجة تشككهم في يقينهم بالله سبحانه. فهذه هي

الأستاذ: يحيى البقاعي

العقيدة الإيمانية الحقّة التي دعى الحق سبحانه عباده للالتزام بها، فمن تحقق بتلك العقيدة، وظهر أثرها في سلوكه فأولئك الذين صدقوا الله في إيمانهم وأولئك هم المفلحون.

قال النسفي في قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥)، الحجرات: ١٥ .

قال23: (والمعنى: أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهام لما صدّقوه. ولمّا كان الإيقان وزوال الريب ملاك إيمانهم أُفرد بالذكر بعد تقدم الإيمان بكلمة التراخي إشعاراً باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضباً جديداً).

ثم أشار الحق سبحانه إلى أنّ هؤلاء الأعراب لشدة جهلهم يظنون أنهم سوف يدلّسون الحقيقة ويخفونها عن الله سبحانه. فوبخهم واستنكر عليهم هذا الفعل الذي يدلّ على قلة معرفتهم بالله الذي أحاط بكل شيء علماً فلا تفوته فائتة. فيخاطب تعالى نبيه قل: يا محمد لهؤلاء الأعراب القائلين آمنا بأفواهنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم هل بلغ بكم الجهل أن تُعلّموا الله أيها القوم بدينكم أي بطاعتكم ربكم، والله يعلم ما في السموات والأرض؟!

فهو سبحانه لا تخفى عليه خافية، ومنه أنه يعلم ما تكن صدوركم .

ثم بيّن الحق سبحانه أنّهم إن كانوا يظنون أنّ لهم الفضل في قبول الإيمان، وأنّهم يستحقون ما يريدون من أموال الصدقة مقابل قبولهم الإيمان، فهم مخطئون؛ إذ الفضل كل الفضل يعود لله سبحانه الذي هداهم للإيمان. و أنّ المنّة لله لا لهم إن تحققوا بالإيمان إن كانوا صادقين. لأنّ المؤمن الصادق يرى أنّ الفضل لله وحده . وفي ذلك إشارة إلى أنّ واجب المؤمن أن لا تفوته هذه الحقيقة. فإيمانه لم يكن باجتهاده فلولا لطف الله به لم يستطع أن يحصل نعمة الإيمان المنجية من عذاب الله يوم القيامة.

فلينظر نظر رحمة لألئك المتنكبين الشاردين عن الطريق السويّ، وأن يشفق عليهم رحمة بهم فيتلطّف في دعوتهم إلى الله.

خاتمة دروس السورة.

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

ثُ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨).

الحجرات: ١٨

المعنى العام: يُخبر الحق سبحانه أنَّ علمه محيط بكل ما في السموات والأرض فهو سبحانه يعلم صدق الصادق من ادعاء المدعي.

الشرح التفصيلي لما تتضمنه الآية:

يختتم الحق سبحانه هذه السورة الجليلة بهذه الآية المحكمة، والتي تجعل من اطلاع الله سبحانه على أعمال عباده حافزا لكل صاحب بصيرة أن يحسن عمله، لأنَّ الناقد بصير، ومطلَّع على السرائر فلا تخفى عليه خافية.

لقد عرضت السورة لمواضيعها فقدمت الأهم ثم ما يبني عليه بشكل متسلسل حتى كانت أشبه ببناء متكامل الأركان فبدأت السورة بالحديث عن وجوب الانقياد لله سبحانه وعدم التعجل بالأحكام قبل صدور رأي الشرع في ذلك. ثم انتقلت إلى الحديث عن وجوب التأدب بين يدي الله ورسوله. ثم انتقلت للحديث عن طائفة من الأخلاق التي تحفظ للمجتمع المسلم وحدته فتحدثت عن وجوب التأكد من الأخبار التي فيها إساءة لبعض المسلمين فإن ثبتت تلك الأخبار حُكم على المُدانين بما يستحقون، وإلا نتجنب الخطأ في رمي البريئين مما اهتمهم به المغرضون.

ثم انتقلت السورة للحديث عما يجب أن يفعله المجتمع المسلم أمام النزاعات الداخلية من وجوب الإصلاح بين المتخاصمين.

ثم تحدثت السورة عن طائفة أخرى من الأخلاق المذمومة وأمرت باجتنابها على وجه الوجوب.

فنهت عن السخرية واللمز والتنايز بالألقاب وعن الظنِّ وأنواعه، وما يجب اجتنابه منها وكذا تحدثت عن حرمة التجسس والغيبة. فالتحذير من هذه الطائفة من الأخلاق إنما أرادت منه إصلاح المجتمع الإسلامي من الداخل .

ثم انتقلت إلى توجيهات جديدة تتعلق بما هو أعم من المجتمع المسلم فتحدثت عن أصل البشرية جمعاء وأنها تعود إلى أصل واحد فلا يفخر أحد على أحد بما الكل فيه مشتركون.

الأستاذ: يحيى البقاعي

ثم تكلمت السورة عن بيان حقيقة الإيمان وأنه ليس كلمات جوفاء بل هو عقيدة في القلب تترجم إلى سلوك عملي على أرض الواقع تفعله جوارح المكلفين .
ثم ختمت السورة ببيان شمول علم الله لكل ما في الوجود فلا تخفى عليه خافية، وسيحاسب الناس بما علم من حالهم فليحذروا كل الحذر ولْيُثَقِّنُوا أعمالهم لأنَّ الناقد بصير .

وهكذا يتضح مدى الانسجام بين مقدمة السورة ودروسها وما خُتمت به فهي تضع منهجا متكاملا لما يجب أن يكون عليه حال المجتمع المسلم المنفعل بدينه والمتفاعل مع نفسه فيما بين أفرادهِ ومع غيره من المجتمعات الأخرى فالسورة نسيج متكامل في بناء الأخلاق .

الخاتمة

مما سبق يتبين لنا أنَّ تناول السُورِ القرآنية من خلال التفسير الموضوعي يمكن أن يكشف علوما جديدة نحتاج إليها في حياتنا، وتمتاز بالصبغة الإسلامية التي تناسب خصوصية مجتمعاتنا الإسلامية كما سبق كالعلوم التربوية والاجتماعية النفسية وغيرها من العلوم.

ومباحث التفسير الموضوعي أو طريقه يمكن أن تكون أرضية صالحة للنظر في النصوص القرآنية بقراءة جديدة لا تخرج عن الأصول العامة للتفسير، ولكنها تأخذ أساليب جديدة في عرضها للقضايا المطروحة بالبحث في مواضيع السور، وذلك بدراسة المحور العام الذي تدور حوله معاني آيات السور ثم تقسيم السور القرآنية إلى دروس جزئية والربط بين تلك الدروس للخروج بدراسة متكاملة لموضوع كل سورة على حدا، أو من خلال جمع كل الآيات القرآنية التي نزلت في موضوع ما ومحاولة ترتيبها ترتيبا يناسب دراسة ذلك الموضوع. أو من خلال دراسة مصطلح قرآني استخدمه القرآن لأكثر من معنى وجمع تلك النصوص التي تطرقت لتلك المعاني المختلفة والتوفيق فيما بينها.

ولا يَبْغُ أن تظهر طرق جديدة للتفسير الموضوعي تُوظف في فهم القرآن بشكل أعمق وخصوصا عندما نعلم أن التفسير الموضوعي لا زال قابلا لأن يستوعب في مناهجه طرقا جديدة للبحث في الإعجاز القرآني .

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

وبعد: فإنَّ هذه خطوة نتلمس من خلالها الطريق إلى عمل أكثر شمولية وأكثر عمقا في فهم إعجاز القرآن الكريم الذي سيبقى ينبوعا ثرا تزخر آياته وسوره بالعلوم التي تُسعد البشرية جمعاء .

فإن كان من توفيق فبفضل من الله ومَنَّة، وإن كان ثَمَّة تقصير فلقللة البضاعة والله ولي التوفيق والحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

1. البحر المحيط لـ أبي حيان الأندلسي 754.654هـ، تح صدقي محمد جميل، دار الفكر، لا.ط، ت.ط/1412هـ 1992م.
2. البرهان في علوم القرآن لـ محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي 745-794هـ تح محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار المعرفة، لا.ط، ت.ط/1391هـ.
3. تفسير التحرير والتنوير لـ محمد الطاهر بن عاشور، بيروت، مؤسسة التاريخ ط1، ت.ط/1420هـ 2000م.
4. تفسير المراغي لـ أحمد مصطفى المراغي، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ط3، ت.ط/1382هـ 1962م.
5. التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق لـ صلاح عبد الفتاح الخالدي، الأردن، دار النفائس، ط1، ت.ط/1401هـ .
6. جامع البيان عن تأويل القرآن لـ محمد بن جرير الطبري (310هـ)، بيروت، دار الفكر، لا.ط، ت.ط/1405هـ.
7. الجواهر الحسان في تفسير القرآن لـ عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لا.ط، لا.ت.
8. دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لـ زاهر بن عواض الألمعي، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ط1، ت.ط/1405هـ.
- 9 - روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني لـ شهاب الدين السيد محمود الألوسي أبو الفضل ت 1270هـ، لبنان، بيروت، دار إحياء التراث العربي، لا.ط، لا.ت.
10. زاد المسير في علم التفسير عبد الرحمن بن علي الشهير بـ ابن الجوزي 508-597هـ، بيروت المكتب الإسلامي، ت.ط/1400هـ لا.ط.
11. تفسير فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير لـ محمد بن علي الشوكاني 1173-1250هـ، بيروت، دار الفكر، لا.ط، لا.ت.
12. في ظلال القرآن لـ سيد قطب، بيروت، القاهرة دار الشروق ط7، ت.ط/1393هـ 1978م.

التفسير الموضوعي لسورة الحجرات

13. تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل. ل. محمود بن عمر الزمخشري أبي القاسم 467- 538 هـ. تح: الشيخ أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض. مطبعة العبيكان، ط1/ ط1418 هـ، 1998 م.
14. مدارك التنزيل وحقائق التأويل ل. عبد الله بن أحمد أبي البركات النسفي، تح يوسف بديوي، تقديم محي الدين مستو، بيروت، دمشق، دار ابن كثير، ط2، ط1420 هـ. 1999 م.

- 1 : Bremond J., Geledan A.,(1981) : « Dictionnaire économique et social », Hatier Paris, pp210
- 2:BEZBAKH P.(1995) Inflation et désinflation, La Découverte Paris
- 3:الروبي نبيل: " التضخم في الاقتصاديات المختلفة "، مؤسسة الثقافة العربية، مصر بدون تاريخ.ص13-15
- 4: Bremond J., Geledan A.,(1981) : «Dictionnaire économique et social », Hatier Paris, pp212.
- 5: الموسوي ضياء مجيد(1993): " الاقتصاد النقدي "، دار الفكر الجزائر ص220-221.
- 6 « Rapport annuel de 1996 sur la zone franc », Banque de France.
- 7:IMF «World Economic Outlook Data Base», FMI, Décembre 2001.
- 8 Bourbonnais R., (1998) : « Econométrie »,op cité, p251
- 9 : Bourbonnais R., (1998) : « Econométrie », p219

